DOI : 10.12816/0013977



المجلة الدولية للتنمية
Vol.2, No.(1) (2012)
e-ISSN: 2314-5560 (Online)
e-mail: www. ijd.byethost13.com

المجلد الثاني العدد الاول (2012)
International Journal of Development
ISSN: 2314-5552
ijd_fas@yahoo.com

العمارة الدينية وتطورها في ليبيا أثناء العهد العثماني (1551 ـ 1711 م) دراسة تاريخية أثرية

علي أحمد الدوماني

كلية الآداب والعلوم ـ مسلاته جامعة المرقب ـ ليبيا

المقدمة

إذا كان الهدف من أعمال الزخرفة التي تكسو معظم جدران المباني الإسلامية هو الأحساس بفتيت الكتلة إلى وحدات زخرفية لا متناهية وجعل العناصر المعمارية المكونة لهذه المباني أقل صلابة.

فإن الطابع المميز لفن العمارة الإسلامي في ليبيا على العكس من ذلك ؛ ليؤكد صلابة الكتلة والاعتماد عليها كعنصر معماري تعبيري مجرد ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على صلابة السكان ويعكس روحهم النضالية من جهة ويؤكد بالتالي وعيهم الفطري بجوهر الفن المعماري والمتمثل في الاحساس بقيمة الحيز الفضائي الذي يشغله المبنى والفضاء المنحصر داخل جدرانه[1].

حتى ان الإضافات التزيينية التي يلجأ إليها بعض البنائين أحياناً لمعالجة سطوح هذه المباني تأتي في الغالب على هيئة نحت بارز أقرب إلى النقش الجداري منها إلى أعمال الزخرفة باستثناء جامع أحمد باشا وجامع قرجي بطرابلس، حيث ازدانت بيوت الصلاة فيهما باعمال زخرفية جميلة في حين جاء الشكل الخارجي متفقاً مع الإطار العام للمعمار الوطني [2].

فالمساجد القديمة البسيطة ذات القبيبات المتعددة ومباني القبوات المستطيلة والمربعة على اختلاف أنماطها والمنتشرة على امتداد القرى الليبية والمباني الأخرى من قلاع وفنادق ومنازل التي أبدعتها يد البناء الليبي الفنان، هي دليل قاطع على إحساس بقيمة الكتلة وقدرتها التعبيرية، ومن جهة أخرى فإن تاريخ الإنشاء المعماري في ليبيا كان مرتبطاً وباستمرار لظروف اقتصادية وجغرافية ومعمارية صعبة وفي ظروف سياسية ومعيشية لم تعرف معنى الاستقرار، فمن مكافحة قسوة الطبيعة وغزو الأجانب إلى مقاومة إغراء مختلف المدارس المعمارية العابرة باستثناء المدرسة المغربية، بما كان يتسرب منها عن طريق تونس من خبرات ومهارات ظهرت آثارها في بعض أعمال العمارة الوطنية، بل إن أصالة الفن المعماري الليبي استطاعت أن تنفذ إلى أذواق الوافدين حتى إن سنان المهندس العثماني لم يستطع مقاومة عشقه وتأثره بجمال وبساطة المسجد الليبي عندما قام بتشييد مسجد "بيالة باشا" باستنبول.

وهكذا فأن المعمار الليبي عموماً والديني منه بصورة خاصة بدأ بداية بسيطة ثم شهد مراحل من التطور لعل أبرزها كان خلال الفترة موضوع الدراسة .



أولا: نشأة العمارة الدينية في ليبيا.

- الموقع الجغرافي وأهميته:

تحتل ليبيا الجزء الأوسط لساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي أو ما يسمى بشمال أفريقيا وتمتد فوق مساحة تقدر حوالي (1.750) مليون وسبعمائة وخمسين ألف كم^2، أي أكثر من 18% من مساحة الوطن العربي في أفريقيا وتمتد بالتحديد من شواطئ البحر المتوسط شمالاً إلى حدود كل من النيجر وتشاد في الجنوب، أما من ناحية الشرق فيمتد خط الحدود مع الحدود الغربية لجمهورية مصر العربية والحدود الشمالية الغربية للسودان، والحدود من الغرب تمتد مع تونس والجزائر، أما من حيث التحديد الفلكي فهي تنحصر بين دائرتي عرض 33^0، 18.45 شمالاً ويحـدها غرباً خط طول 9 ^{0}، وشرقاً خـط طول 25 شرقاً[3]، وتعد ليبيا من الدول التي تمتلك جبهة بحرية طويلة وسواحلها من اطول السواحل على البحر الأبيض المتوسط، وهي دولة عربية أفريقية إذ تدخل ضمن نطاق دول حوض البحر المتوسط الذي يعد مركز الحضارات القديمة وهذا منحها الفرصة لكي تتصل بدول هذا الحوض منذ الأف السنين[4].

وبفضل هذا الموقع المهم والمتداخل الذي ربط ليبيا بالبلدان المجاورة لها أهلها لأن تكون حلقة الوصل المهمة المساعدة على نقل المؤثرات الحضارية بينهما، وهذا الموقع أثر وبشكل مباشر في تكوين وتشكيل سمات ومميزات العناصر الزخرفية والمعمارية في العمارة الإسلامية في ليببا ، ومن المعروف أن ليبيا كانت ولا تزال حلقة وصل بين شرق العالم الإسلامي وغربه وبين الشمال والجنوب، وهذا بدوره ساعد على الأسلوب المعماري وخاصة على الشريط الساحلي والسهول الساحلية، وعلى امتداد طرق القوافل، حيث يكثر التركز السكاني وفي المناطق الريفية والواحات الداخلية وتطور الأسلوب المعماري البسيط في البناء والزخرفة وصار له تقليده الخاص[5].

والعلاقةالتجارية مع وسط أفريقيا عن طريق القوافل أثرت على تطور الفن المعماري الإسلامي ومظاهر زخرفته في ليبيا فالعنصر الأفريقي الذي هو واضح في العمارة الريفية في ليبيا، كان نتاجاً لهذه العلاقة التجارية ، ولقد كانت الباحثة "د(الوجونز) محقة في ربطها للعنصر الأفريقي المعمارين والذي هو واضح في المعمار الريفي البسيط مع العمارة الليبية المتطورة والتركيز على الشريط الساحلي، ومن المعتقد أن التأثير الأفريقي يظهر واضحاً في التحف المنقولة كالأبواب الخشبية ذات الزخارف البارزة المحفورة ، كما أن انتشار الإسلام في الأقطار الأفريقية المتاخمة للصحراء كان عاملاً آخر من عوامل الربط بين دول شمال القارة وجنوبها[6].

وابتداءً من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ظهر في ليبيا نوع من الزخرفة، كما ظهر منبر العمارة الإسلامية في كل شمال أفريقيا.

وبطبيعة الحال فأن الموقع الجغرافي في ليبيا جعل منها ساحة للتأثير والتأثر بما حولها من البلدان وبخاص شمال القارة الأفريقية وجنوبها.



ثانيا: تطور المعمار الديني في ليبيا:

تنوعت العناصر الفنية التي استخدمت في تجميل العمائر الإسلامية، وهذا التنوع الكبير هو الذي أعطى للفن الإسلامي خصائصه ومميزاته، وشهدت الأقطار الإسلامية طرق مختلفة في تنوع الزخارف، وكان هذا التنوع يختلف من قطر إلى آخر[7]، والملاحظ أن العهد العثماني جزء لا يتجزأ من العصور التاريخية الإسلامية ، وفترة الأربعة قـرون الأخـيرة مازالت آثارها المعمارية باقية في الـعديد من المدن والمناطق الليبية [8].

ونظراً لطبيعة موقع ليبيا فقد ظهر الترابط بين المعمار الليبي وجواره الإسلامي والجغرافي، وتبادل التأثيرات التاريخية والجغرافية، ولم تكن ليبيا حلقة اتصال، بل شكلت هويتها الخاصة ومميزاتها ، كما أن الزخاف المعمارية والفنية تقترب من الزخاف في بلاد شمال أفريقيا والشام، وكانت الزخارف الأكثر شيوعاً في ليبيا مثل الأزهار والفواكه ونباتات محورة بحيث يصعب في الغالب التعرف عليها، والملاحظ أن الفنانين المسلمين قد تركوا في هذا الميدان تحفاً رائعة لم يسبق لها مثيل، وقاموا بدرا سة الزخرفة الهندسية[9]، واستخدموا الكتابات الخطية والبارزة وعناصر هندسية واستخدام الحليات الزخرفيةالبارزة ، وظهور العديد من المواضيع الزخرفية الفنية مثل الوريدات وأزهار القرنفل وزهرة عباد الشمس، ومن أهم خصائص العمارة الدينية والمدنية في ليبيا استخدام العنصر الزخرفي على واجهات وأركان المآذن وعلى مداخل وزوايا المباني والنجمة الخماسية والهلال الزخرفي، الجصية الرخامية ، بلاطات القاشاني، ذات اللون الواحد او متعدد الألوان[10].

كانت معظم المساجد في ليبيا تتميز بقلة زخارفها حسب الأسلوب المحلي الذي يمثل المواضيع النباتية لأزهار وفواكه ونباتات محورة، ومواضع هندسية وخطية، إلا أن تغيراً قد حدث في هذا الجانب مع خضوع مدينة طرابلس للحكم العثماني، وأخذ الاهتمام بزخرفة المساجد في الازدياد ، وقد مر بعدة مراحل وهي : زخرفة أجزاء من المحراب، وكذلك المنبر، مع تغطية أجزاء من الجدران الخارجية لقاعة الصلاة ببلاطات القيشاني، وكذلك أجزاء من المآذن جلها يرجع للعهد العثماني الأول، كما أن أغلب الملامح الزخرفية للمساجد في العهد العثماني متمثلة في استخدام عنصر أو عدة عناصر زخرفية بارزة، وهذه الزخاف أصبحت شائعة الاستعمال في العمارة الدينية التي ترجع للقرن السابع والثامن عشر الميلاديين[11].

- العناصر المعمارية في المسجد الليبي:

تتميز المدن الليبية بكثرة مساجدها ، فقد أجمع الرحالة الذين زاروا مدينة طرابلس في عصور مختلفة أن مساجد البلد لا تعد ولا تحصى لكثرتها[12]، لذلك فإن معظم المساجد الباقية لمدينة طرابلس تعود إلى الفترة العثمانية الأولى أو القرمانلية أو العثمانية الثانية، لأن طرابلس في تلك الفترة كانت تشكل قوة مهيبة الجانب تسعى الدول الأوروبية إلى كسب ودها وعقد الاتفاقيات معها، بالإضافة إلى ما كان يرد إلى حكامها من مكاسب وغنائم نتيجة للنشاط البحري للأسطول الطرابلسي، مما أدى إلى الاهتمام بتشييد



العمائر وترميم العمائر القديمة، وقد شكلت عمائر تلك الفترة مرحلة مميزة في التطور المعماري وعناصر الزخرفة الفنية في مدينة طرابلس[13].

- نماذج لبعض المساجد الليبية:

أولاً: جامع درغوت:

يقع الجامع في منطقة باب البحريحده من الشمال شارع باب البحر، والغرب شارع فرعي (زنقة درغوت) ومن الجنوب زنقة الحمام، ومن الشرق منطقة الحمام الملاصقة للجامع، انشأه درغوت باشا على مساحة مستطيلة الشكل، حيث تظهر جدران الجامع الخارجية بشكل غير منتظم وخاصة الواجهة الشمالية الغربية ، وأن الواجهات جميعها تخلو من الزخارف، كما يوجد بابان داخل المبني الباب الرئيسي يقع في جدار الواجهة الشمالية الغربية إلى جانب المئذنة ، والباب الآخر في الواجهة الشمالية الذي يؤدي إلى المدافن والأضرحة الملحقة بالجامع[14]، كما يوجد خلف الجامع فناءان مكشوفان يستعملان كمدافن تضم مجموعة من القبور وعليها شواهد رخامية يتوسطها ضريح المنشئ[15].

- بيت الصلاة:

يتوسط في الجامع وقد صمم على شك حرف (T) وإلى الشمال والشمال الغربي منها يمتد فناء طويل نلاحظ به سدة من الحجر تمتد حتى تلتصق ببناء المئذنة، تنقسم قاعة الصلاة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول منها يتكون من خمسة أروقة موازية لحائط القبلة وبه اثنا عشر عموداً حديثة العهد تغطي هذه الأروقة عشرون قبة دائرية.

أما القسمان الجانبيان من بيت الصلاة ، متكون كل منهما من ثلاثة أروقة تغطيها اثني عشرة قبة دائرية مقامة على أعمدة رخامية ، وإلى الشمال الشرقي من قاعة الصلاة ، توجد حجرتان تفتحان على القاعة نفسها وبها بابان آخران يفتحان في الجهة الشمالية الشرقية من الجامع، الحجرة الصغيرة مغطاة بقبة، أما الحجرة الأخرى فهي تضم عدة قبور مغطاة بقبة أيضاً، وتبلغ مساحة بيت الصلاة حوالي 348 م[15].



- **المحراب:**

لقد تنوعت المحاريب في العهد العثماني الأول من حيث مواد زخارفها، فالبعض منها لم يحتو على أي زخارف مثل محراب المسجد النخلي، بينما ظهرت الزخارف بشكل واضح في محاريب أخرى منها محراب جامع درغوت، فقد كسيت ببلاط القيشاني، واشتملت هذه الزخارف في العادة على شكل الهلال والنجمة محفورة حفراً بارزاً أو بعض الأشكال النباتية والكتابية المتمثلة في الآيات القرآنية والدعائية[16].

أما محراب جامع درغوت فهو عبارة عن حنية مجوفة معقودة بعقد نصف دائري يبلغ اتساع هذه الحنية حوالي 1.30 متر، وعمقها 60 سم، وصنجات عقد المحراب من الرخام الأبيض فيما عدا صنجة المفتاح فهي من رخام وردي اللون ويعلوها شكل الهلال والنجمة محفوراً حفراً بارزاً ويرتكز عقد المحراب على عمودين من الرخام يعلو بدنهما تاجان على شكل ناقوس مقلوب تعلوه وسادة رخامية مربعة بارزة، أما نصف قبيبة المحراب تحتوي على زخارف جصية هندسية بارزة عن أشكال نجمة وخطوط خماسية هندسية، بالإضافة للزخارف الأخرى الموجودة في الجزء السفلي من المحراب من كتابية وحيوانية ونباتية وهندسية[17].

- **المنبر:**

لقد احتوت المساجد في العهد العثماني الأول على المنابر وكان أغلبها من الخشب وقليل منها من الرخام مثل جامع درغوت فكان ومنبره بالكامل مصنوع من الرخام يتقدمه عمودان من الرخام ويرتكزان على قواعد من كتل رخامية مربعة يعلوها جزء دائري، أما التاج فزخارفه موزعة على ثلاثة أجزاء ، الجزء السفلي يشتمل على أشكال نباتية ، ويعلو ذلك وسادة رخامية مربعة حفر على كل جانب من جوانبها رسم هلال ، ويرتكز على العمودين عقد ثلاثي النصوص نقشت في واجهته زخارف نباتية دقيقة محفورة حفراً بارزاً ويعلو ذلك زخارف كتابية ، ويغطى من الأعلى قبة نصف كروية صغيرة ترتكز علي أربعة أعمدة شبيهة تماماً بالأعمدة التي تتقدم المنبر مزخرفه بزخارف نباتية محفورة حفراً بارزاً، وقد استخدمت من الرخام الأخضر والأحمر كفواصل بين الحشوات الرخامية بجانبي المنبر كما غطت بطون الفتحات من الأسفل ببلاطات من القاشاني ذات زخارف نباتية وهندسية[18].

- **النوافذ:**

تحتوي قاعة الصلاة على نوافذ على شكل مستطيل غائر في جدار قاعة الصلاة ، بلغ عدد هذه النوافذ خمس نوافذ حيث تقع اثنتان منها على يمين المحراب، وتقع النوافذ الثلاثة الأخرى على يسار المحراب، وهناك سبع نوافذ مواجهة لجدار القبلة ، وهي مستطيلة الشكل مصنوعة من الخشب[19].



- **المضيأة:**

تقع على يمين الباب الرئيس الذي يفتح على شارع درغوت حيث يتقدمها رواق محمول على ثلاثة أعمدة تحمل عقدين نصف دائريين ترتكز على تيجان من النوع الدوري ، ويعلو العقود أشكال تمثل شرفات مسننة، وإلى جانب هذه أيضاً المبضأة من الجهة اليسري دورات المياه وهي ملحقة بالمبضأة[20].

- **المئذنة:**

لقد ضمت مساجد مدينة طرابلس العديد من المآذن تعود إلى العهد العثماني الاول، ومازالت تحتفظ بمكوناتها الأصلية فوجدت المآدن الأسطونية الشكل كمئذنة جامع درغوت باشا، والتي ينسب بنائها إلى اسكندر باشا سنة(1013هـ/ 1604م)، وهي مكونة من قاعدة مربعة تضيق من أعلى عن طريق انحسار الجدران قليلاً إلى الداخل ويُحد القاعدة من أعلى إطار مجري بارز، حيث يبدأ التجول إلى الديران المستدير عن طريق أربع مثلثات منحدرة رؤوسها إلى أسفل ، ثم يلي ذلك البدن الإصطواني ، وتتخلله فتحات صغيرة مستطيلة ، وينهي البدن من أعلى بإطار حجري بارز ، حيث تبدأ الجدران في الانفراج إلى الخارج قليلا مكونة من قاعدة للشرفة المستديرة التي ترتكز على الجدران مباشرة، ويعلو الشرفة الجزء الثاني للبدن الإسطواني، وهو ضيق كثيراً من الجزء الأول، ويعلو هذا الجزء القمة المخروطية المستديرة من ستة اوجة قطاعها مدبب ومصنوعة من الخشب[21].

ثانياً: جامع شائب العين[××].

يقع هذا الجامع بشارع سوق الترك بنى هذا الجامع محمد باشا الملقب بشائب العين ، عندما تولى ولاية طرابلس الغرب سنة 1698م ، وقد شيد هذا الجامع الذي يحمل اسمه سنة 1698-1699م[22].

- **بيت الصلاة:**

توجد قاعة الصلاة في منتصف الجامع تقريباً ، ولها أربعة أبواب خارجية اثنان يفتحان مباشرة على سوق الترك في الجدار الجنوبي ، والباب الثالث يفتح على الفناء الغربي ، والرابع يفتح على الفناء الشمالي، كما يوجد باب خامس في جدار القبة شمالي المحراب يوصل إلى حجرة مغطاة بقبة مثمنة بها ضريح مؤسس الجامع شائب العين وأفراد عائلته ، ويوجد باب آخر جنوب المحراب يصل إلى حجرة أخرى ، وتتكون قاعة الصلاة من أربعة أروقة عمودية على حائط القبة ، الرواق الأوسط وهو أكثر أرتفاعاً واتساعاً به تسع أعمدة موزعة في ثلاثة صفوف ؛ كل صف به ثلاثة أعمدة كبيرة من الرخام تستند على أقواس تغطيها ست عشرة قبة صغيرة[23].



- المحراب:

يقع في الجدار الشرقي في منتصف البيت تقريباً ، وهو عبارة عن تجويف داخل جدار القبلة مزخرف به بعض الآيات القرآنية [24].

- المنبر:

على يسار المحراب وهو مصنوع من الرخام ويتكون من عدة درجات وتعلوه قبة صغيرة محمولة على أربعة أعمدة صغير[25].

- النوافد:

وبقاعة الصلاة يوجد عدة نوافد على ارتفاعات متفاوتة أربع منها في الجدار الجنوبي، ونافذتان في الجدار الغربي، ونافدتان في الجدار الشمالي وأربع نوافذ في الجدار الشرقي، ويعلو جدار القبة نوافذ صغيرة نصف دائرية مغطاة بالزجاج الملون [26].

- المضيأة:

توجد على يسار الداخل مكان للوضوء متصل بالجدار الغربي ومغطى بالقيشاني الملون، وفي أقصى شمال هذا الرواق مدخل يوصل إلى رواق آخر يمتد موازة جدار قاعة الصلاة يوصل إلى حجرات الاستحمام ودورات المياه[27].

- المئدنة:

وهي على الطراز التركي ولها شرفة واحدة[28].

ثالثا : دور المؤسسات الدينية والثقافية في ليبيا.

أ- الزاويا [***]

الزاوية* في العربية تعني الركن، أي ركن البناء ، وسماها أهل التصوف الخلوة ، أو مكان الاختلاء بأنفسهم أو مريديهم في ركن مسجد القرية أو المدينة، وقامت في العالم الإسلامي وفي فترات مبكرة منه بعدة أدوار[29]، فالزاوية هي مركز ديني ثقافي واجتماعي وعسكري وهي المكان للصوفية لتدريس طرقهم[30].

يشيد مبني الزاوية في العادة إلى جوار ضريح شيخ خليل أو عالم ورع، وربما شيد الضريح إلى جوار الزاوية في بعض الحالات، وغالباً ما يقوم بإنشائها لأهالي المحبين لهذا الشيخ، أو ذلك العالم الورع الصوفي ، ويبدأ مشروع بناء الزاوية بداية متواضعة في مكوناتها المعمارية، ثم تأخذ هذه النواة المعمارية في التطور والتوسعن وذلك بازدياد نشاط القائمين عليها ، ويقوم الأهالي والأفراد



والعائلات الميسورة الحال من وقف الأملاك ، أو العقارات ، أو أراضي زراعية تحبس، وتكون ذات عوائد اقتصادية كبيرة للإنفاق منها على مشاريع الزاوية التوسيعية، وكذلك للإنفاق على الطلاب الذين وهبوا حياتهم لطلب العلم، وحفظ القرآن واالفقه، ونشر المعرفة العربية والدينية بين سكان المناطق المختلفة حيث يجد الطلاب المكان المناسب للإقامة والتعليم[31].

وتبدأ هذه النواة المعمارية الدينية المباركة قي التوسع المعماري فيزداد حجمها وتكثر حجراتها وخلاويها، ويضاف إليها بالتدريج مبان وملحاقات أخرى خدمية، وسرعان ما تزداد مكوناتها المعمارية عاماً بعد آخر إلى أن يتم توسيع المسجد الذي بني غالباً على جوارها والذي ما يلبث أن يصبح حافظاً كبيراً له ملحقاته المعمارية الخدمية[32]، وكان لهذه الزاويا المنتشرة في ربوع ليبيا الأثر الكبير في التعليم وانتشاره ، وبانتشار التعليم الديني ازدهرت المعرفة والثقافة وتأليف الكتب ونسخ المخطوطات، مما ساعد على ترسيخ مفاهيم الحضارة الإسلامية في جميع أرجاء ليبيا، وذلك أن هذه الزاويا العلمية خرجت الألأف من طلاب العلم والمعرفة وحفظة القرآن والعلماء والمشايخ الذين انتشروا بذورهم في أرجاء البلاد واضعين معرفتهم وخبراتهم من أجل غيرهم ووطنهم وذلك بإنشاء كتاتيب وزاويا ومدارس دينية والتي تأخذ في فترة لاحقة مجرى التطور نفسه الذي مرت به الزاويا العريقة، وتنسب الزاويا إلى الطريقة الصوفية التي تنتهجها مثل الطريقة القادرية والشاذلية والزروقية نسبة إلى شيخ كل طريقة[33]، وتزخر مدينة طرابلس بوجود العديد من الزاويا التي اشتهرت بها وذاع صيتها ومنها الزاوية الكبيرة والزاوية الصغيرة الزاوية القادرية زاوية المكني وزاوية سيدي يعقوب والزاوية السنوسية بطرابلس، بالإضافة إلى أنه هنالك العديد من الزاويا الأخرى في ضواحي مدينة طرابلس مثل زاوية الشيخ الماعزي ، وزاوية ميزران، وزاوية سيدي المصري وزاوية عمورة ، والزاوية الغربية وزاوية بن شعيب، وكذلك في المناطق المختلفة شرق ليبيا ، مثل زاوية أبي راوي بتاجوراء، وزاوية الدوكالي بمسلاته وزاوية يوسف الجعراني بمسلاته وزاوية الفرجاني بالخمس، وزاوية عبدالسلام الأسمر بزليتن والزاوية الزروقية بمصراته وغيرها من الزوايا في باقي أنحاء ليبيا[34].

ب- الرباط:

ويعني في اللغة هو مكان اجتماع الفرسان[35]، تأهباً للرد على الحملات التي تشن على الثغور ، وهو في الحق مكان ديني حربي اختص به المسلمون ، ويحتوي بعض الأربطة – بيوتاً للسكن ، ومستودعاً للسلاح والمؤن، وبرجاً للإشارة.

وإذا رجعنا لكتب اللغة الحديثة لمعنى كلمة رباط ؛ فإننا نجد أن مدلولها في الاسم(رباط) هو ما يشد به، وبمعنى المصدر (الرباط- المرابطة)، وتعني المواظبة، كما تعني في معناها ملازمة ثغر العدو[36].

أما في كتب الحديث فهي تعني الانفراد والاعتزال وقصر الرباط على الجهاد والحرص على الشهادة [37]، وفي ذات التعريف (الرباط)اصطلح الفقهاء على أن احتباس النفس في الجهاد والحراسة[38]، وأما المتصوفة فلهم رأي آخر في تعريف الرباط الموضع الذي يتلزم فيه للعبادة[39].



ومن التعريفات السابقة يمكن استخلاص أن دور الرباط هو مراقبة تحركات العدو ورصدها على طول الساحل وكذلك يعد مكاناً للتعليم والعبادة بسبب أن المرابطين أغلبهم من العلماء وطلبة العلم والعبادة[40]، وبإنتشار الإسلام في ربوع ليبيا والمغرب العربي الإسلامي وما صاحب ذلك من تحد للفرنجة ومحاولاتهم منع تقدم انتشار الإسلام والمسلمين، وانتشار الحضارة الإسلامية كان لزاماً على حكام هذه الولايات والامصار الإسلامية في شمال أفريقيا أن تقوم بتشيد العديد من الحصون في مناطق مختلفة من الشريط الساحلي لشمال أفريقيا يطلق عليها الربط ، وهي ذات مواصفات معمارية خاصة للقيام بالدفاع عن دور الإسلام وحمايتها من هجمات الفرنجة وأساطيلهم[41].

وبذلك أقيمت على طول الساحل الليبي الحصون والربط ، وقد تأسس أول رباط على يد الوالي العربي هرثمة بين أعين عام 180هـ في طرابلس ؛ ليكون درعاً واقياً للبلاد وعيناً ساهرة لها من مباغثات الأعداء، وكانت الرباطات حصوناً متصلة ، فإذا ظهر على البحر عدد نور كل حصن للحصين الذي يليه ، واتصل التنوير، فينتهي خبر العدو من طرابلس للاسكندرية فى وقت قصير ، أما في النهار فأغلب الظن أنهم كانوا يستخدمون الدخان بدلاً من التنوير، وبذلك أصبحت هذه الأربطة تمثل خطاً دفاعياً عامراً بالمرابطين علماء ومجاهدين وعباداً[42].

أصبح الرباط معسكراً صغيراً محصناً ويتكون من صحن وعشرات الغرف الانفرادية حوله ، ومن الطبقات التي تعلو جوانبه وتنتهي بجامع كبير وصومعه مستديرة للآذان ومقر استراحة للمسافرين، وهو أيضاً مدرسة يتلقى فيها المرابطون علومهم على الرجال والنساء ، ويعلمون على صناعة الحبر والورق ليوزع على الطلاب مجاناً، ناهيك عن دار لنسخ المصاحف الشريفة وكتب الحديث والفقه، حيث يحبس المؤلفون مؤلفاتهم بخطوط أيديهم على الأربطة؛ لتكون منها النسخة الأم التي يرجع إلى نصها الصحيح وتقابل عليها النصوص المنتسخة، ويتولون المرابطون الناساخون نسخها بأعداد كثيرة لتوزيعها على طلاب العلم، ففي كل رباط مكتبة جدارية للنسخ[43]، ولم يقتصر التعليم على العلوم الإسلامية البحثة بل اتسعت ، وشملت بعض العلوم الرياضة وعلم الفلك والكيمياء، وبذلك أصبح الرباط نبراس اشعاع للعلوم العربية والإسلامية ومركز بناء الثقافة الإسلامية [44].

لقد لعب الرباط في المغرب العربي دوراً أساسياً في تثقيف السودانيين جنوب الصحراء في العربية ، وسرعان ما قامت مدن على تلك الأربطة وازدهرت فانتشرت الأربطة من خليج غانة إلى البحر الأحمر إلى مكة[45]، ومن الفضائل التي اتصف بها الحكام ، أو الولاة المسلمون في الدول التي توالت على حكم بلدان شمال أفريقيا اهتمامهم بتدريس العلوم الدينية عبر الفترات المتوالية التي كانت سبباً في انتشار الإسلام والعلم والثقافة والمعرفة الإسلامية في كل الامصار الإسلامية في هذه الفترات ، والتي كانت ليبيا جزءاً مهماً من ولاياتها ومقاطعاتها، مما صبغ هذه الدول والشعوب بطابع الحضارة والثقافة الإسلامية [46].



ج- المدارس:

تأسست في العهد العثماني والقرمانلي في طرابلس عدة مدارس كان لها الفضل والأثر الكبير في النهوض بالتعليم الديني في ليبيا عامة، وخاصة منطقة طرابلس ومن هذه المدارس، هي:

- مدرسة عثمان باشا الساقزلي:

تقع مدرسة عثمان باشا بالمدينة القديمة بشارع درغوث باشا ، وتعتبر من المدراس المشهورة التي أسسها والي طرابلس عثمان باشا الساقزلي الذي حكم الولاية في الفترة من 1649-1672م، وقد انشأ العديد من المنشأت العمرانية في المدينة القديمة من أهمها سوق الرباع ، والفندق الكبير ، والقندق الجديد واهتم كثيراً بالاستحكمات العسكرية غير أنه في أواخر ايامه عامل الناس معاملة سيئة ، فثار عليه الجند وحاصروه في القلعة وخوفاً من ان يقع في يد الثوار شرب السم يوم20 نوفمبر 1672م [47].

وصف المدرسة :

مبني المدرسة مربع الشكل ويبلغ طول جدراها الجنوبي الشرقي 49 متراً، ويوجد بالمدخل الرئيس في الجدار الشمالي لوحة تأسيسية من الرخام مستطيلة الشكل مكتوب عليها ذكرى تأسيس المدرسة .

وفيما يلي نص الكتابة : "حضرت عثمان باشا يسر الـلـه له من الخيرات ما شاء، أسس بنيان هذه المدرسة ، وجعلها لطلبة العلم وتلاوة القرآن الكريم الهي تجاوز عن سيئاته يارحمان، تحرير في غرة ذو القعدة في سنة أربعة وستون وألف" [48].

ويوصل مدخل المدرسة إلى فناء مكشوف مستطيل الشكل طوله 8.80 متر وعرضه 8.50 متر تتوسطه نافورة مربعة الشكل يحيط بالصحن من أربع جهات رواق من باثكة من ثلاثة عقود ونصف دائرية محمولة على 12 عمود رخامياً ذات أبدان اسطوانية ولها تيجان من النوع الحفصي تسع من تيجانها على شكل زهرة اللوتس(****)، واثنان منهاعلى شكل الدوري والآخر عمود ركني بدون تاج على حافة جدار المصلي وتغطي كل رواق من الأروقة الاربعة قبو طولي فيما عدا البلاطات الركنية فإنها مغطاة بقبة نصف كروية محمولة على مثلثات كروية[49]، كما يلحق بالمدرسة أيضاً مصلى وهو مربع الشكل يبلغ طوله ضلعه 5 متر، ويوجد في كل جدار من جدرانه الأربعة عقد نصف دائري يرتكز على أكتاف حائطية بمقدار 30 سم، تحمل جدران زخارف جصية بسيطة التي تتكون من مجموعة عقود دائرية الشكل تكاد تكون كاملة الاستدارة محمولة على أعمدة وتتخلل جدران المصلى خمس نوافذ، نافذتان في الجدار الشمالي الغربي، نافذتان آخريان في الجدار الشمالي الشرقي، بينما تقع الأخيرة في الجدار الجنوبي الغربي[50].

ويوجد المحراب في منتصف جدار القبلة وهو بسيط الشكل عبارة عن تجويف في جدار القبلة تكتنفه من كل جانب دعامة ، وعلى جانبيه توجد مشكاة وتعلوا المصلي قبة جميلة على قاعدة مثمنة ترتكز عليها مقرنصات بشكل ربع دائرة كما تجد بها مجموعة من الخلاوي خاصة بطلبة المدرسة : وهي عبارة عن حجرات صغيرة تستخدم لسكن الطلبة القاطنين من خارج المدينة[51]،



هذا إلى جانب الفراغات الخدمية ، والتي تختلف من مدرسة إلى أخرى ، والتي يبلغ عددها أربع عشر خلوة، مختلفة المساحات تحتوي كل منها على فتحة باب معقودة بعقد نصف دائري ترتكز على كتفين وتحتوي كل خلوة على نافذة مستطيلة الشكل تطل على رواق وتغطي كل خلوة قبو برميلي الشكل ، وتوجد أيضاً المضيأة وحجرات الاستحمام وبه حوض جميل مزخرف من الرخام كان يملأ من البئر المجاور وتقع حجرة ضريح عثمان باشا شمال شرقي المصلي، وبها عدد من المقابر وهي مربعة الشكل تعلوها قبة ويقع مدخلها إلى جانب الشمالي الغربي(52).

الخاتمة

من خلال العرض للمعمار الديني الإسلامي في ليبيا فإننا نلاحظ أن بدايته بسيطة فكانت المساجد والزاويا والربط خالية من الزخرفة وهي مرحلة كان تأثير الدول المجاورة واضحاً فيها وبخاصة دول شمال أفريقيا ودول ما وراء الصحراء.

وبطبيعة الحال فإن تطور الفن المعماري والزخرفي قد بدأ يتطور بالتدريج حتى بلغ غايته في الفترة قيد البحث فمن خلال المساجد التي تم عرضها تبين أنها تحتوي على زخارف في جدرانها وفي ألوانها ونوافدها داخل صحن المسجد وخارجه، فقد كان للبنائيين الليبيين مسحة فنية جمالية رائعة أشاد بها الكثير ممن زار ليبيا وشاهدوا مساجد طرابلس التي شيدها بعض الولاة العثمانيين كدرغوث باشا الذي عرف المسجد باسمه وجامع شايب العين وغيرها من المساجد التي لا تزال تحتفظ بكثير من زخارفها ونقوشها المحفورة على الجدران والأبواب وهو ما تم الاشارة إليه تفصيلاً في ثنايا هذا البحث.



المراجع

1- علي مصطفى رمضان: تأملات في المعمار الإسلامي في ليبيا، وزاة الدولة الإدارة العامة للثقافة ، ليبيا؛ تونس:الدار العربية للكتاب، 1975م، ص2؛ انظر: مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثار في ليبيا، تقديم علي البلوشي وآخرون، ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، 1980م، ص9.

2- علي مصطفى رمضان: المرجع السابق، ص 2.

3- محمد المبروك المهدوي: جغرافية ليبيا البشرية، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، ط2، 1990م، ص9؛ عبدالعزيز طريح شرف: جغرافية ليبيا، الاسكندرية: منشورات مركز الاسكندرية للكتاب، ط4، 1996م، ص ص 4-5.

4- محمد المبروك المهدوي: المرجع السابق، ص10.

5- مسعود رمضان شقلوف وأخرون: المرجع السابق، ص 12.

6- علي مسعود البلوشي وآخرون: المرجع السابق، ص12.

7- إبراهيم سالم نويجي: المساجد الإعلامية في المدينة القديمة بطرابلس في العهد العثماني الأول من 1551- 1911م، دراسة أثارية تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المرقب، 2004م، ص 265.

8- علي مسعود البلوشي وآخرون: المرجع السابق، ص 11.

9- حنان محمد علي بن نافع: العناصر الزخرفية المعمارية لمدينة طرابلس خلال العهد العثماني 1551-1911م، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المرقب/ الخمس، 2007م، ص84.

10- علي مسعود وآخرون: المرجع السابق، صفحة بدون ترقيم.

11- علي مسعود البلوشي: تاريخ معمار في ليبيا في العهدين الأول والقرمانلي1551-1911م، طرابلس: منشورات جميعة الدعوة الإسلامية ،2006م، ص137.

12- أبوعبدالـلـه بن أحمد التجاني: رحلة التجاني ، المطبعة الرسميةن تونس، 1958م، ص 254.

13- صلاح أحمد البهنسي: المرجع السابق، ص59.

14- حنان محمد نافع: المرجع السابق، ص 97؛ وانظر: مسعود رمضان شقلوف: المرجع السابق، ص 60.

15- - مسعود رمضان شقلوف وأخرون: المرجع السابق، ص ص 61-62.

(*) يقع المسجد بكوشة الصفار وهو مسجد صغير له مدخل معقود في الجانب الشمالي الغربي، أسس هذا المسجد رمضان خازندار 1064ه/ 1653م، كما سجل في لوحة رخامية فوق مدخل المسجد.



16- حنان محمد علي بن نافع: المرجع السابق، ص دون ترقيم.

17- المرجع نفسه: ص108.

18- المرجع نفسه: ص109.

19- المرجع نفسه: ص 106.

20- المرجع نفسه: ص 102.

21- المرجع نفسه: ص 100.

(**) محمد شائب العين هو المنسوب إليه الجامع والقبة بشائب العين لأنه كان في إحدى عينه شعرات بيضاء ولاه الجند بعد أن عزلوا إبراهيم التارزي في أواخر ذي الحجة سنة 1098م والياً على طرابلس ويقول عنه النائب الانصاري كان خيراً تقياً نزيه النفس واسع الصدر ذا رأي وحزم وروية له مشاركة علمية، وفي بعض الأربعاء لأحد عشر من ذي الحجة 1112هـ ثار عليه الجند وخلعوه وذهب إلى الاستانة وكانت مدة ولايته 14 سنة وبقى هناك إلى ان تولى صهرة خليل قاز دغلي ولاية طرابلس 1114هـــ فجاء به إلى طرابلس وهو وعائلته أول محرم 1115هـــ وبقى فيها إلى أن مات ودفن بالتربة المخصصة له بالجامع ، انظر مسعود رضمان شقولف وآخرون: المرجع سابق، ص64.

22- حنان محمد علي بن نافع: ص 67.

23- المرجع نفسه والصفحة.

24- المرجع نفسه: ص 68.

25- مسعود رمضان شقلوف وآخرون: المرجع السابق، ص 68.

26- المرجع نفسه: ص 67.

27- المرجع نفسه: ص64.

28- المرجع نفسه والصفحة.

(***) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة زاوية وهي محل تفتيت العقول دينيا وأدبياً ، وتكون مسماة باسم أحد المرابطين على اصطلاح المغاربة وهي عبارة عن مسجد وقفيه على ضريح المرابط المنسوب إليه وفيها محل لقراءة القرآن وآخر تدريس فيه العلوم، وثالث لتعليم الصغار، ونزل للطلبة الذين يريدون إكمال دروسهم حتى يعصبروا أهلا للتدريس أو نيابة القضاة ونزل آخر للفقراء والمسافرين، وقد تكون فيها مقبرة لأهل الصلاح القاصدين مجاورة قبورهم لقبور المرابطين وصارت للزاويا ربع كثيرة وأوقاف جيدة.



29- غيث عبدالـلـه العربي:امسلاته في العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب/ الخمس ، كلية الآداب ترهونة، 2006م، 163.

30- محمد علي عبدالسلام مسعود: دور الكتاتيب والزاويا في حركة الجهاد الليبي في طرابلس الغرب1911-1922م(من الناحية الدينية والاجتماعية)، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المرقب/ الخمس، 2009م، ص 22.

31- الطاهر أحمد الزاوي: معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، د.ت، ص ص 164-165.

32- علي مسعود البلوشي: معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، إعداد مجموعة من الباحثين، اللجنة الوطنية الليبية للتربية والثقافة ، طرابلس ، 2007م، ص 251.

33-نجاح القابسي: المعاهد والمؤسسات التعليمة في المغرب العربي، طرابلس: مجلة كلية التربية، العدد الرابع عشر، 1980م، ص ص 17-19.

34- علي مسعود البلوشي: معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، ص ص 253-254-255.

35- الطاهر الزاوي: مختار القاموس، ترتيب على طريقة مختار الصحاح والمصباح المنير، ليبيا؛ تونس: الدار العربية للكتاب، مطبعة اوفسا ميلانو، 1979م، ص 236.

36- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، تحقيق عبدالحليم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت ، 1968م، ص ص228-304.

37- مسلم صيحي مسلم.

38- محمد بن أحمد التلمساني بن مرزوق: المسند الصحيح مآثر مولانا الحسن ، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم111، ورقة 27.

39- بشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع عشر/العاشر الميلاجي، طرابلس: منشورات دار المدار الإسلامي، 2003م، ص ص 412- 413.

40-المرجع نفسه : ص413.

41- المرجع نفسه والصفحة.

42- عبد\اللطيف محمد البرغوثي: تاريخ ليبيا الإسلامي منذ الفتح وحتى بداية العهد العثماني ،بيروت: دار صادر، منشورات الجامعة الليبية، 1972م، ص 227ح رأفت غنيني الشيخ: مرجع سابق، ص 91؛ بشير رمضان التليسي: المرجع السابق، ص 416.

43- رأفت الشيخ غنيمي: المرجع السابق، ص ص 89-90-91.

44- محمد الكلدي بالحاج: المرجع السابق، ص 30.

45- علي مسعود البلوشي: المرجع السابق، ص 251.

46- مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ص81.



47- المرجع نفسه: ص ص 81-82.

48- المرجع نفسه والصفحة.

(****) وهو شجر شائك من الفصيلة الوردية له ثمرة تكون في البداية شيهة بلون وحجم اللامس(نبات عطري) وكلما يكبر صبح شبيها بالتمر، ويشبه حجمه حبة الزيتون وله نواة صغيرة تشبه طعمة التين والتمر، انظر: محمد المبروك الذويب: من مصادر التاريخ القديم، الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوت ، بنغازي:جماعة قاريونس، 2003م، ص 121.

49- حنان محمد علي نافع: المرجع السابق، ص 167.

50- جمال أحمد الموير: المدارس الدينية لمدينة طرابلس في العهد العثماني، جامعة المرقب/ الخمسن 2006م، ص 27.

51- مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا، ص 85.

52 – حنان محمد علي نافع: المرجع السابق، ص ص171-172؛ مسعود رمضان شقلوف وآخرون: موسوعة الآثا الإسلامية في ليبيا، ص ص 84-85.